مجلة المجمع العلمي

في المنهج النقدي

ـ الحلقة الرابعة ـ

الدكتور احمد مطلوب

عضو المجمع العلمي ـ بغداد

الملخص :

يتعرض هذا البحث لقصيدة أحمد شوقي في رثاء اسماعيل صبري ، وقد وقف عند بعض ما يلقي الضوء عليها ، ثم فسرها وحللها أسلوبيا وتصويريا ، وقارن بينها وبين قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء الطاهر الموسوي ، وانتهى الى أن شوقي لم يعارض القصيدة بمعنى المعارضة الدقيق ، وأن المنهج الذي اتبع في النقد لم يبعثر أبيات القصيدة ، وإنما حافظ على روحها وأسلوبها الرفيع .

(١)

اسماعيل صبري (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣م) شاعر تميز بالذوق الرفيع ورقة التعبير ، ونسبه عباس محمود العقاد الى الذوق القاهري ، قال : ((فنشأ على ذوق قاهري صادق يعرف الرقة بسليقته وفكره ، وليس يتكلفها بشفتيه ولسانه))[١]. وقال الدكتور شوقي ضيف : ((لعل مصر لم تعرف في عصرها الحديث الى نهاية الربع الأول من هذا القرن[٢] شاعرا يسيل رقة وعذوبة على نحو ما عرفت ذلك عند اسماعيل صبري ، فله غزليات تجيش بسيل دافق من العاطفة والوجدان ، وقلما تحس فيها بتكلف أو ما يشبه التكلف ، وإنما تحس

---

[١] شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ـ مجموعة أعلام الشعر ص٢٤٨ .

[٢] أي القرن العشرين .

بصدق الشعور الذي يأخذ بمجامع القلوب))[٣] . وعزا تلك الرقة الى ندوة ميّ زيادة التي كان يختلف اليها ((فيستمع الى الأحاديث الناعمة ، والمحاورات الرقيقة مع المرأة فيتأثر بذلك في صميم نفسه ويكون سبباً من أسباب رقة حواشيه)) .[٤]

وكان يختلف الى تلك الندوة كثير من أدباء مصر ومفكريها[٥] ، وكانوا يجدون فيها الأدب الرفيع والآراء الحرة ، ويتملّون من جمال ميّ ورقتها ، وكان بعضهم يميل اليها وينظم الغزل فيها ، واتخذها العقاد حبيبة في روايته (سارة) ، ولكنها لم تعبأ بهم ؛ لأن قلبها كان متجها الى جبران خليل جبران .

كان اسماعيل صبري معجبا بميّ كلَّ الاعجاب ، ويقال إن قصيدته ((لواء الحسن)) من وحيها :[٦]

يا لواءَ الحُسنِ أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنة في ظلِّ اللواء

فرقتهم في الهوى ثاراتهم ... فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء

إنَّ هذا الحسن كالماء الذي ... فيه للأنفس رِيٌّ وشفاء

لا تذودي بعضنا عن وِرْده ... دون بعض واعدلي بين الظماء

أنتِ يمٌّ الحسن فيك ازدحمتْ ... سُفُنُ الآمال يُزجيها الرجاء

---

[٣] دراسات في الشعر العربي المعاصر ص٣٣ .

[٤] المصدر نفسه ص٣٤ .

[٥] منهم : يعقوب صروف وشبلي شميل واحمد لطفي السيد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد واحمد شوقي وولي الدين يكن . وكانت الندوة تعقد يوم الثلاثاء .

[٦] ينظر الموازنة ص٢٨٦ ، مجموعة أعلام الشعر ص٢٤٩ ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ص٣٥ ، مي زيادة في حياتها وآثارها ص١٢٥ .

وكان يبعث اليها بالرسائل أو الشعر إذا ما غاب عن حضور النـدوة[٧]

رُوحي على بعض دورِ الحيّ حائمةٌ كظامئِ الطير حَوَّاما الى الماءِ

إنْ لم أُمتـع بمـيّ ناظـريَّ غدا أنكرتُ صبحكِ يا يومَ الثلاثاءِ

كان لحضوره ندوة ميّ أثر في رقة ذوقه ، فضلا عن أنه قـد شبَّ في عهد نهضة مصر ، ودخل المدارس الحديثة ، وأكمل تعليمـه في فرنسا ونال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨م ، وتـذوق الحضـارة الفرنسية ، واطلع على ثقافتها وآدابها ، وحين عاد الى وطنـه مصـر عمل قاضيا ومحافظا ووكيلا لوزارة الحقانية ــ العدل ــ . وفـي آذار سنة ١٩٠٧م أُحيل على المعاش ولم يبلغ سِنَّ التقاعد إذ كان عمره ثلاثة وخمسين عاما ، وذلك ليعينوا احمد فتحي زغلول مكانه مكافأة له على قرار الاعدام الذي أصدره في قضـية (دنشـواي) ، قـال إبـراهيم الهلباوي في خطبته الانتخابية لعضوية مجلس النواب : وكان المـدعي العام للمحكمة : ((يعيدون مرافعتي ، ولا يذكرون أن المرحوم فتحـي باشا زغلول شقيق سعد باشا ، هو الذي قبلـت ذمتـه أن يحكـم مـع الآخرين بتلك العقوبات ؛ لأن الحكم كان بالاجماع ، وقَبِـلَ قلمـه أن يسطر تلك الحيثيات ؛ لأنه وحده الذي سطر حيثيات الحكم التي تنفـث لهبا ونارا)) ، ثم قال : ((إن فتحي زغلول بعد الحكـم فـي قضـية (دنشواي) استحق المكافأة من الانجليز فأخرجوا المرحوم صبري من مسند وكالة الحقانية بطريقة استبدادية ، وأجلسوا محله بطريق الترقيـة العظيم صاحب العزة أحمد فتحي بك زغلول بمرتـب (١٢٥) جنيهـا شهريا ، ومنحه رتبة (باشا) . ولكي يتموا جميلهم على هـذا البيـت

---

[٧] مي زيادة في حياتها وآثارها ص١١٨ ، وتنظر ص١٢٤ .

الكريم رقوا شقيقه الكبير معالي سعد باشا في السنة نفسها من مستشار في الاستئناف الى وزير للمعارف)) .[٨]

ووصف أحمد حسن الزيات أحوال صبري بعد إحالته على التقاعد : ((ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ، ويساجلهم القريض ، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره ، أنغاما موقعه على قيثارة شعره ، وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأدباء ، يفدون اليها للسمر فينشدون أشعارهم فينقدها نقد الصيرف ، ويهذبها تهذيب المعلم حتى نعتوه بالأستاذيه وأقروا له بالأولية ، وظل على هذه الحال الى أن مُني بداء القلب فغالبه بضع سنين ، ثم صرعه سنة ١٩٢٣م[٩] ، وهو في التاسعة والستين من عمره))[١٠] .

وكان شوقي يحضر مجلسه ، وكان يعده أُستاذه ، إذ أرسل من منفاه في الأندلس ببيتين الى رئيس تحرير جريدة (الأهرام) وطلب عرضهما على ((أستاذ الشعراء اسماعيل صبري باشا ليبدي رأيه في معناهما)) وهما :

يا ساريَ البرْق يَرمي عن جوانحنا بعد الهدوء ويَهْمي عن مآقينا
ترقرقَ الماءُ في دَمْعِ السَّماء وما غاضَ الأسى فخضبنا الأرَض باكينا

وأجابه صبري بأبيات على وزنهما ورويهما[١١] . ولولا اعتراف شوقي بمكانة صبري الشعرية وذوقه الرفيع وحسه المرهف ما

---

[٨] الشوقيات المجهولة ج٢ ص٨٤ ، وتنظر ص٥٥ .

[٩] توفي صباح الحادي والعشرين من آذار سنة ١٩٢٣م (ينظر الموازنة بين الشعراء ص٢٨٤) .

[١٠] تأريخ الأدب العربي ص٤٩٦ .

[١١] ينظر الشوقيات المجهولة ج٢ ص١٦٦ .

أرسل اليه بالبيتين ليرى رأيه فيهما ، قبل أن يضمهما الى نونيته الأندلسية :[١٢]

يا نائحَ الطلْح أشباهٌ عوادينا نَشْجَى لواديك أم نأسَى لوادينا

والعلاقة بين الشاعرين قديمة ، فمنذ سنة ١٨٩١م توطدت الصداقة بينهما ((وكانا فرسي رهان يتباريان في نظم القصائد في الموضوع الواحد على سنن واحد)) ، وكانت تلك الصداقة ((خصبة مثمرة كلها نماء وبركة)) وكانا ((كوكبين يدوران في فلك واحد من الصداقة والفن ولا يمكن دَرْسُ شعرهما إلا في ضوء العلاقة القديمة الخالصة التي ظللتهما زمانا))[١٣] ، وحينما مات عمر بن اسماعيل سنة ١٩٠٨عزاه شوقي بكلمة رثاء .[١٤]

(٢)

عاد شوقي من منفاه بعد أن ألقت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ووجد صبري يصارع مرض القلب حتى صرعه سنة ١٩٢٣م فرثاه :[١٥]

أَجَلّ . وإنْ طال الزمانُ ــ مُوافي أَخلى يديكَ من الخليلِ الوافي

وهي في ثلاثة وسبعين بيتا من البحر الكامل ، وهو وزن يتحمل مشاعر الحب والحزن والأسى ، وقد أجاد شوقي في هذه المرثية كما أجاد في رثاء مصطفى كامل وحافظ ابراهيم . جَرَّدَ شوقي من نفسه شخصا آخر وخاطبه : ((أَخلى يديكَ من الخليل الوافي)) ،

---

[١٢] تنظر فى الشوقيات ج٢ ص١٢٧ .

[١٣] ينظر الشوقيات المجهولة ج١ ص٩٢ ، ٩٨ ، وينظر ج٢ ص١٤٠ .

[١٤] تنظر في الشوقيات المجهولة ج٢ ص١٠٣ .

[١٥] تنظر القصيدة في الشوقيات ج٣ ص١١٣ .

ومضى يصف حاله حين سمع بنعي اسماعيل صبري الذي كان من صفوة أُلّافه ، حيث انهمرت الدموع حزنا عليه ، ثم انثنى نحو الحكمة ، وقال لاشيء يعدل مودة الرجال :

أَجَلّ ــ وإنْ طال الزمانُ ــ مُوافي ... أَخلى يديكَ من الخليل الوافي
داعٍ الى حَقٍّ أهابَ بخاشعٍ ... لبس النذير على هُدًى وعفافِ
ذهَبَ الشبابُ فلم يكنْ رُزئي بهِ ... دُونَ المصاب بصفوة الأُلاّف
جَلَلٌ من الأَرزاء في أمثاله ... همَمُ العزاء قليلةُ الإسعافِ
خَفَّتْ له العَبَراتُ وهي أبيةٌ ... في حادثاتِ الدهر غيرُ خفافِ
ولكل ما أَتلَفْتَ من مُستكرَمٍ ... إلا مَوَدّاتِ الرجالِ تلافِ

وخاطب الدنيا :

ما أنتِ يادنيا أَرؤيا نائمٍ ... أم ليلُ عِرسٍ أم بِساطُ سُلافِ ؟
نعماؤكِ الريحانُ إلا أنه ... مَسَّتْ حواشيه نقيعُ زُعافِ
مازِلْتُ أصحب فيك خُلْقا ثابتا ... حتى ظفِرتُ بخلقك المتنافي

ووصف المرثي بالطهر ونقاء السريرة ، وطيب الكفن :

ذهَبَ الذبيحُ السَّمْحُ مِثْلَ سميّه ... طُهْرَ المكفَّنِ طيِّبَ الأَلفافِ

وأراد بالسميّ النبي اسماعيل ــ عليه السلام ــ الذي هَمَّ أبوه ابراهيم ــ عليه السلام ــ بذبحه استجابة للرؤيا ، والصلة بين صبري وسميه أنه كان يعاني من مرض القلب والذبحة الصدرية ، والى هذا أشار بقوله :

كم باتَ يذبح صَدْرَهُ لشَكاته ... أتُراه يَحسبها من الأَضياف ؟

إنها علة نزلت على صدره ورئتيه ، وتقلبت في جوانبه :

نزلَت على سَحْرِ السَّماح ونحره ... وتقلَّبت في أكرمِ الأكنافِ
لَجَّتْ على الصدر الرحيبِ وبرَّحَتْ ... بالكاظمِ الغيظ الصفوحِ العافي

ومضى يتحدث عن هذه العلة ، وعن قلب الفقيد الذي لو انتظم القلوبَ حنانُهُ ما بقي قلب قاسٍ :

ما كان أقْسَى قلبها من علَّةٍ ... علِقَتْ بأرحم حبَّةٍ وشَغـــافِ
قلْبٌ لو انتظم القلوبَ حنانُه ... لم يبقَ قاسٍ في الجوانح جافِ
حتى رماه بالمنية فانجلَتْ ... مَنْ يَبْتلي بقضائه ويُعـــافي

فماذا فعلت ؟

أخْنَتْ على الفلك المُدار فلم يَدُرْ ... وعلى العُباب فقَر في الرجَّافِ
ومَضَتْ بنارِ العبقرية لم تَدَعْ ... غيرَ الرماد ودارساتِ أثافـــي

وانتقل الى وصف نعش الراحل :

حملوا على الاكتاف نُورَ جلالة ... يَذَرُ العيونَ حواسِدَ الأكتـــافِ
وتقلدوا النعشَ الكريـــمَ يتيمـــةً ... ولكم نعوشٍ في الرقابِ زِيافِ
متمايلَ الأعواد مما مسَّ مـــن ... كَرَمٍ ومما ضَمَّ من أعطـــافِ
وإذا جلالُ الموت واف سابغٌ ... وإذا جلالُ العبقريةِ ضافـــي

والتفت الى الشباب وقد تخطر بينهم نعش الفقيد وسأل : هـــل متعـــوا بالتمسُّح والطواف حول النعش ، ثم قال : لو أن زعيم الشباب مصطفى كامل كان حيا لنكس اللواء تحية لصبري :

ويحَ الشباب وقد تَخَطَّر بينهم ... هل مُتعوا بتمسُّـــحٍ وطوافِ ؟
لو عاش قدوتُهم وربُّ لوائهم ... نكَسَ اللـــواءَ لثابتٍ وقّـــافِ
فلكم سقاه الـــــودَّ حين وِدادُه ... حَرْبٌ لأهلِ الحكمِ والأشرافِ
لا يومَ للأقوام حتى ينهضوا ... بقوادمٍ من أمْسِهم وخَوافـــــي

وعاد الى الذين يضربون على قبور الموتى القباب ويزورونها كما زوروا قصورهم مما جعل الأرض تضحك عليهم ، ويسخر مـــنهم الرفات السافي :

لا يُعجبَّنكَ ما تَرى من قُبـــةٍ ضربوا على موتاهـمُ وطـرافِ
هجموا على الحق المبين بباطلٍ وعلى سبيلِ القَصْـدِ والإسـرافِ
يبنون دارَ الله كيف بَدا لهـــم غُرفـاتِ مُتْرٍ أو سَقيفةَ عافـــي
ويزوِّرون قبورَهم كقصورهـم والأرضُ تضحكُ والرفاتُ السافي

ولا تخلُ هذه اللوحة بوحدة القصيدة لأنها إشارة الى مـا قَـدَّم المرثي في حياته من أعمال تخلده ، والى من اهتم بالمظاهر الزائلة .

وعاد في اللوحة الرابعـة الـى صـبري ، وصَـوَّرَ فجيعـة مصر بموته :

فُجعت رُبَى الوادي بواحدِ أيكها وتجرعَتْ شُكْلَ الغدير الصافي
فَقَدَتْ بَنانا كالربيعِ مُجيـــدةً وَشْيَ الرياض وصَنْعَةَ الأفوافِ

وهنا تذكر رثاء المعري للشريف الموسوي والـد الشـريفين : الرضى والمرتضى ، وشهرتهما بالبلاغة وحسن البيان ، فقال إنْ فاته نسبهم فلم يفته سحر البيان ، وهو العصامي

إنْ فاته نسبُ الرضيّ فربمـــا جَريا لغاية سـؤددٍ وطـرافِ
أو كان دُون أبي الرضيّ أبـوةً فلقد أعادَ بيانَ (عبدِ منـافِ)
شَرَفُ العِصاميين صُنْعُ نفوسهم مَنْ ذا يقيسُ بهم بني الأشرافِ
قل للمشيـر الى أبيه وجَـدّه أعلمْتَ للقمريـنِ من أسـلافِ
لو أن (عِمرانا) نِجارك لم تَسُدْ حتى يُشار اليك في الأعـراف

وكان صبري قاضيا تُعرض عليه القضايا ويصدر الأحكام التي قد تُستأنف ، ولكن قضية الموت لا استئناف لها :

قاضي القضاةِ جَرَتْ عليه قضيةٌ للموتِ ليس لها من استئنافِ
ومُصَرِّفُ الأحكام موكولٌ الـى حُكْمِ المنية ما له من كافـي
ومُنادِمُ الأملاك تحت قبابهـــم أمس تُنادمـه ذئابُ فيـا في

في منزلٍ دارتْ على الصِّيد العلا ... فيه الرحى وَمَشَتْ على الأرداف

وأذيل من حُسْنِ الوجوه وعزّها ... ما كان يُبعد من وراءِ سجاف

من كل لَمّاحِ النعيمِ تقلبتْ ... ديباجتاه على بلًى وجَفاف

وترى الجماجم في التراب تماثلتْ ... بعد العقول تماثُلَ الأصداف

وترى العيونَ القاتلاتِ بنظرةٍ ... منهوبةَ الأجفانِ والأسياف

وتُراع من ضَحِكِ الثغور وطالما ... فَتَنَتْ بحلوِ تبسّمٍ وَهناف

غَمزَتِ القرونَ الذاهبينَ غزالةٌ ... دَمُهم بذمّةِ قَرْنها الرَّعّاف

يجري القضاءُ بها ويجري الدهر عن ... يدِها فيا لثلاثةٍ أحلاف

ترمي البريةَ بالحُبول وتارةً ... بحبائلٍ من خيطها وكفاف

نَسجت ثلاثَ عمائمٍ واستحدثتْ ... أكفانَ موتى من ثياب زَفاف

هذا ما فعل الموت بالناس كبيرهم وصغيرهم ، ملكهم وصعلوكهم ، إنه قضية لااستئناف لها ، فكل من على الارض فانٍ ، وإن ((حكم المنية في البرية جارٍ)) لا فرار منه .

وخاطبه في اللوحة السادسة باسم ولده (حسين) وحيا تربته الطاهرة ، وأبلغه سلام الأهل الوُلّه والصحابة الحسرى ، وقال : إنه لا يملك ما يقدمه له سوى شعره ، يزجيه بين يديه :

أأبا (الحسين) تحيةً لثراكَ من ... رَوحٍ وريحانٍ وعَذْبِ نِطاف

وسلامُ أهلٍ وُلّهٍ وصحابةٍ ... حُرَى على تلك الخلالِ لِهاف

هل في يَديّ سوى قريضٍ خالدٍ ... أُزجيه بين يديك للاتحاف

ما كان أكرمه عليك فهل ترى ... أني بَعثتُ بأكرمِ الألطاف

هذا هو الريحانُ إلا أنّه ... نفحاتُ تلك الروضةِ المئناف

والدرُّ إلا أنَّ مَهْدَ يتيمه ... بالأمس لُحبَّةُ بحرك القذّاف

أيامَ أمرحُ في غُبارِك ناشئـــا مَنهجَ الهارِ على غُبار خِصافِ
أتعلّم الغاياتِ كيف نـــزام في مضمارِ فضلٍ أو مجالِ قوافِ

وفي هذه اللوحة اعترف شوقي بفضل صبري عليه ، فما شعره إلا من نفحاته ومن بحر شعره ، وما جريه فـــي مضـــمار الحيـــاة إلا بفضله العميم .

وفي اللوحة النابغة وَصَفَ نعشه ، وإنه سائر به حيث المنتهى :

ياراكبَ الحدباء خَلِّ زماقهـــا ليس السبيلُ على الدليل بخافِ
دانَ المطيَّ الناسُ غير مطيةٍ للحـــق لا عجلى ولا ميجـــافِ
لا في الجيادِ ولا النياقِ وإنما خُلِقَتْ بغيـــر حوافرٍ وخِفـــافِ
تتنابُ بالركبان منزلة الهدى وتؤمُّ دارَ الحـــق والإنصـــافِ
قد بلَّغت رَبَّ المدائن وانتهتْ حيث انتهيتَ بصاحبِ الأحقافِ

وفي اللوحة الثامنة أمر بغير حقيقته :

نَمْ مِلءَ جَفْنك فالغدوُّ غوافـــلٌ عما يَروعك والعشيُّ غَوافـــي
في مضجع يكفيك من حَسناتِهِ أَنْ ليس جنبـــكَ عنه بالمتجافي
وأمتحكْ من الأقدار غير مُعَجَّز فاليومَ لَسْتَ لها من الأهـــداف
والموتُ كنتَ تخافه بك ظافِرا حتى ظَفِرتَ به فَدَعْهُ كَفـــافِ

وهنا يسأله عن الموت بعد أن طلب منه أن ينام هانئا في قبره ، بعيدا عما يروعه في الحياة الدنيا :

قُل لي بسابقةِ الـــوِداد أقاتـــلٌ هو حين ينزِل بالفتى أَمْ شافي ؟

وفي هذا نقرع بما كان بين شوقي وصبري من صداقة وطيدة وحب ووداد .

وختم شوقي القصيدة بالكلام على أبوي صبري وجواره لهما :

في الأرضِ من أبويك كنزا رحمةٍ وهوًى وذلك من جِوارٍ كافي

وبها شبابُك واللداتُ بُكيتَـــه ... وبكيتَهـم بالمدمْعِ الـــذَرَّاف

فاذهَبْ كمصباح السماء كلاكما ... مالَ النهارُ به وليس بطـافي

الشمس تُخلَفُ بالنجوم وأنـت ... بالآثار والأخبار والأوصـاف

غَلَبَ الحياةَ فتى يَسُدُّ مكانَهـا ... بالذكر فهو لها بَديـلٌ وافِ

هذه ملامح قصيدة رثاء اسماعيل صبري ، وقد جاءت معبرة عن مشاعر شوقي وحبه للفقيد الذي توطدت صداقتهما وحسنت علاقتهما زمنا طويلا .

لا يختلف أُسلوب شوقي في هذه القصيدة عن أُسلوبه في قصائده الأخرى ، فتراكيبه سليمة وعباراته فصيحة ، ومعانيه واضحة لمن عرف اسماعيل صبري وما أَحاط به . وتمتاز هذه القصيدة باللغة السلسة لولا ورود بعض الألفاظ التي تُعد غريبة في هذه الأيام ، وتنجلي غرابتها بالرجوع الى حواشي الديوان . وهذه الألفاظ هي : المتكرم ــ الزعاف ــ الشكاة ــ السَّحْر ــ الأكناف ــ العباب ــ الرجاف ــ الأثافي ــ العافي ــ الأفواف ــ الطراف ــ الأَملاك ــ الأرداف ــ السجاف ــ الرعاف ــ الكفاف ــ المئناف ــ خصاف ــ ميجاف .

بدأ شوقي قصيدته بنكرة موصوفة وفصل بين المبتدأ أو صفته بعبارة ــ وإن طال الزمان ــ وهو غير جائز[١٦] وإنْ سُمِعَ عن العرب[١٧] . وَجَّردَ في الشطر الثاني من المطلع شخصا آخر وأراد به نفسه : ((أخلى يديك متن الخليل الوافي)) . وفيه ما يُشبه جناس

---

[١٦] ينظر الأشباه والنظائر في النحو ج٤ ص١٥٥ .

[١٧] ينظر شرح ابن عقيل ج١ ص٢٥٠ .

الاشتقاق : (أخلى ــ الخليل) . وفي البيت ــ أيضا ــ جناس ناقص: (موافي) من (أوفى) و (الوافي) من (وفى) .

وحذف المبتدأ في البيت الثاني ، وتقديره : ((هو داعٍ)) وفصل بين الخبر والمبتدأ :

ولكل ما أتلفْتَ من مُستكْرَمٍ ــ إلاَّ مودات الرجال ــ تلاف

وتعجب تَعَجُّبَ ألم وحزن في : ((ما كان أقسى قلبها)) ، كما تعجب تعجب تقدير وإكرام في : ((ما كان أكرمه عليك)) ويريد به القريض بدليل ما قبله : ((هل في يدَيَّ سوى قريضٍ خالدٍ))، ثم قال :

هذا هو الريحانُ إلا أنه نفحاتُ تلك الروضة المئناف

وحذف المبتدأ في : ((قلب لو انتظم القلوبَ حنانُه)) ، أي : هو قلب .

وفصل بين الفعل (رماه) والفاعل (مَنْ) بعبارة : ((بالمنية فانجلت)) في قوله :

حتى رماه بالمنية فانجلتْ مَنْ يَبتلي بقضائه ويُعافي

والفاعل هنا هو الله ــ سبحانه وتعالى ــ الذي يمتحن الناس بالبلوى ويعافيهم .

وجاءت (كم) للتكثير : ((كم بات يذبح صدرَه لشَكاته)) وجاءت للتحقير : ((ولكم نعوشٍ في الرقاب زياف)) أي أنَّ نعش صبري كان عظيما لا يعد له نعش :

وتقلدوا النعش الكريم يتيمةً ولكم نعوشٍ في الرقاب زِيافِ

وجاءت للتقدير والاعتراف بالفضل : ((فلكم سقاه الود)) ، أي سقى المرثي مصطفى كامل زعيم الشباب ، وقد يريد شوقي غير ذلك أي سقى مصطفى المرثيَّ الودَ ، والمعنى الأول أقرب ، لأن صبري أكبر من مصطفى الذي ولد سنة ١٨٧٤م ، في حين أنَّ صبري ولد سنة

١٨٥٤م ، وقد يكون هذا الود هو الذي دفع الانكليز الى أن يحيلوا صبري على التقاعد سنة ١٩٠٧م ، ويعينوا مكانه أحمد فتحي زغلول صاحب محاكمة قضية (دنشواي) مكافأة له على إصدار حكم الاعدام بالمصريين .

واستعمل شوقي ((ويح الشباب)) للترحم والتوجع والتحسر .

وأتى بجواب (لو) بغير اللام :

لو عاش قدوتُهم وربُّ لوائهم نكَسَ اللواءَ لثابت وقَّافِ

وورود اللام هو الصحيح كما في أُسلوب القرآن الكريم ، ومن ذلك قول الله ــ تعالى ــ ((ولو شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بسمعِهم وأبصارِهم)) (البقرة من الآية ٢٠) وقوله : ((لو اطلعتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِرارا)) (الكهف من الآية ١٨) ومثلهما كثير في كتاب الله وكلام العرب .

وجعل ((أنْ ليس جنبك عنه بالمتجافي)) فاعلا لـ (يكفيك) في الشطر الأول :

في مضجع يكفيك من حَسناته أنْ ليس جنبُكَ عنه بالمتجافي

واستفهم بـ (ما) استفهام تعجب : ((ما أنتِ يا دنيا)) وأعقبها بالاستفهام بالهمزة في البيت نفسه :

ما أنتِ يادنيا أرؤيا نائمٍ أم ليلُ عُرْسٍ أم بِساطُ سُلاف ؟

وأجاب :

نعماؤك الريحانُ إلا أنَّه مَسَّتْ حواشيه نقيعُ زُعافِ

واستفهم استفهام تعجب : ((أتراه يحسبها من الأضياف ؟)) أي العلة التي أصابت صبري ونزلت على رئتيه ونحره وأكنافه .

وجاءت (هل) للنفي : ((هل في يديَّ سوى قريض خالد ؟))
أي : ليس عندي سوى الشعر ، وجاءت بهذا المعنى في :

ما كان أكرمه عليك فهل ترى أني بعثتُ بأكرم الألطافِ

وقد تكون للتقليل والاعتذار ، أي أنَّ ما قاله بحق صبري قليل ، ولعل ما بعده يوضحه :

هذا هو الريحانُ إلا أنّه نفحاتُ تلك الروضةِ المئنافِ
والدرُّ إلا أنَّ مَهدَ يتيمه بالأمس لجت بحرك القذافِ

واستفهم بالهمزة أستفهام حيرة وتردد : ((أقاتِلٌ هو حين ينزل بالفتى أم شافي ؟)) وتكرر أُسلوب الأمر في القصيدة ، ومعظمه لا يُراد به الأمر الحقيقي لأن الراقد في مثواه لن يجيب : ((نَمْ مِلءَ جفنك)) و ((اضحكْ من الأقدار)) و ((قُلْ بسابقةِ الوِداد)) و ((فاذهبْ كمصباحِ السماء)) .

وكان اسلوب النداء قليلا : (((أأبا الحسين)) وهو نداء بالهمزة ، و ((يا راكبَ الحدباء)) وهو نداء بالياء ، ولا يُراد به النداء الحقيقي وإنما هو لوعة أسى أرسلها الشاعر .

ويبدو في هذه القصيدة أُسلوب الرد والوصف الذي عُرِفَ به شوقي في معظم شعره ، ولذلك قَلَّ أسلوب الانشاء الذي يكثر في قصائد الغزل والرثاء ، لأنه يُخفف من لوعة الحب أو الحزن عند استعمال الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء ، وكأنها تنفيس عما في النفس وجيشانها فرحا أو ترحا ، وتنهدات يرسلها المحب والمحزون .

(٤)

اعتمد شوقي في التصوير على أُسلوب الوصف ، ومن ذلك ما يُنزِلُ الموتُ بالانسان من مواجع حين يرى أحبابه يرحلون ، وما ينتهي

به من خراب لما كان زهرا عامرا . ومنه وصف النعش الذي ليس له زمام لانه يَعرِف طريقه الى القبر ، وإن لم تكن له أرجل يسعى بها الى ما يريد .

وجاء التشبيه قليلا ومن ذلك استعمال حرف الكاف الذي يتصل بالمشبه به ، ومن ذلك : (يزوِّرونَ قبورَهم كبيوتهم)) ووجه الشبه هو التزوير ، و ((فقدت بنانا كالربيع)) ووجه الشبه هو الاجادة كاجادة وشي الرياض وصنعة الأخواف . ومنه : (اذهب كمصباح السماء)) . واستعمل ((مثل) للتشبيه :

ذَهَبَ الذبيحُ السَّمْحُ مثل سميِّه طُهْرَ المكفَّنِ طيّبَ الأَلفافِ

وجاء التشبيه بلا أداة :

ما أنتِ يادنيا أرُؤيا نائمٍ أم ليلُ عُرْسٍ أم بِساطُ سُلافِ ؟

إذ شبّه الدنيا مرةً بالنائم ، ومرةً بليل الفرس ، ومرةً ببساط السلاف ، وذلك باستعمال أُسلوب الاستفهام .

وشبه شعره بالريحان : ((هذا هو الريحان)) ، وجاء التشبيه بالمصدر :

وترى الجماجمَ في التراب تماثَلَتْ بعد العقولِ تماثُلَ الأَصدافِ

أي مثل تماثل الأصداف . ومنه :

أَيامَ أَمرحُ في غُبارك ناشئا نَهَجَ المِهارِ على غُبار خِصافِ

أي : مثل نهج المهار لخِصاف ، وهو فرس عربي مشهور . ويُعد هذا اللون من التشبيه من محاسن التشبيهات .

وقد يستعير ويُسند الشيء الى غير ما هو له في أصل اللغة ، ومن ذلك أنه أسند إخلاء يديه من الخليل الى الموت في مطلع القصيدة ، وكَنَّ عن الموت بالنذير : ((ليس النذيرُ على هُدًى وعفافِ))

وأسند الذهاب الى (الشباب) : ((ذهب الشبابُ)) ، والانسان هو الذي يذهب ، ولكن الفعل استعمل في كل ما يزول من حي وجماد .

وليس للعزاء همم :((همَمُ العزاء قليلةٌ)) ، والعبرات لا تخف : ((خَفَّتْ له العبارات)) أي نزلت بسرعة على الفقيد وإن كانت عصية من قبلُ .

وكَنَّ بالذبيح عن صبري لاصابته بمرض القلب ، وهو سَميُّ نبي الله اسماعيل ــ عليه السلام ــ حين همَّ أبوه ابراهيم ــ عليه السلام ــ بذبحه لرؤيا طافت به . وفي هذا إشارة الى قوله ــ تعالى ــ على لسان ابراهيم : (((فلما بلغ معه السعيَ قال : يابُنيَّ ، إني أرى في المنامِ أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتِ افعلْ ما تُؤمر ستجدني إنْ شاءَ اللَّهُ من الصابرين)) (الصافات ١٠٢)

وصوّر تحمل صبري المرض بمن يكظم غيظه :

لجَّت على الصدرِ الرحيب وبرَّحَتْ بالكاظم الغيظ الصفوح العافي

وهذا المعنى إشارة الى قول الله ــ تعالى ــ : ((الذين يُنفقونَ في السرّاءِ والضرّاءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ ، والله يُحبُّ المحسنين)) (آل عمران ١٣٤)

وعَبَّرَ عن الاقتدار بالقوادم والخوافي ، لأن الانسان لن ينهض إلا بالارادة القوية ووسائل النهوض ، كما ينهض الطير بالقوادم والخوافي ، ولولا ذلك لظلّ قعيدا ، أو مُسفّا الى الأرض .

وذكر للموت قضية ، ولا قضية له كما للناس ولكنه الأجل الذي لا محيد منه ، وفي البيت ((قاضي القضاة)) و ((قضية)) وهو ما يرجع الى جناس الاشتقاق . واستعمل (الأسياف) بمعنى اللحاظ :

وترى العيونَ القاتلاتِ بنظرة منهوبةَ الأجفانِ والأسياف

ليجانس بين الأجفان وبينها ، وهذا هو جناس الاشارة ، أو جناس الكناية لأنه كَنَّى عن اللحاظ بكلمة (الأسياف) .

وجعل الغزالة وهي الشمس تغزو القرون ، وجعل لها قرنا أحمر ليدل على كثرة قتلاها :

غَزتِ القرونَ الذاهبينَ غزالةٌ دمُهم بذمَّةَ قَرْنها الرَّعَّافِ

إذ جانس بينَ (غزت) و (غزالة) وبين (القرون) و (قرنها) .

وكَنَّى بالعمائم الثلاث : عن أدوار الحياة الثلاثة وهي : الشعر الأسود الذي يدل على الشباب ، والشعر الأسود يخالطه الشيب الذي يدل على الكهولة ، والشعر الأبيض الذي يصيح بساعة الرحيل : ((نَسجت ثلاثَ عمائمٍ)) .

وعبر عن فضل صبري عليه تعبيرا بديعا ، فقريضه من نفحات روضة المرثي ومن لجة بحره المتدفق ، وقال إنه في متابعة صبري كالمهر الذي ينهج نَهْجَ الفرس الأصيل ، وإنه تعلم الغايات في مضمار فضل صبري وقوافيه .

وكنَّى بالحدباء عن النعش : ((يا راكبَ الحدباء)) وكان كعب بن زهير قد قال :

كلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طالَتْ سلامتُهُ يوما على آلةِ حدباءَ محمولُ

وجعل للحدباء زِماما تشبها بالجياد والنياق ، ولكن ليس لها حوافر وخفاف لأنها محمولة على الاكتاف .

(٥)

ليست هذه المرثية معارضة لقصيدة المعري التي رثى بها أبا الشريفين الرضيّ والمرتضى ، وإن اتفقت معها في الغرض والوزن والقافية ، فالمعري تعرَّضَ لما عُرف به الشريف الطاهر الموسوي

ووصفه بأوصاف عصره ، وتعرض شوقي لما اشتهر بـه اسـماعيل صبري ووصفه بأوصاف تنطبق عليه ، وهذا وجه الاختلاف الكبير بين القصيدتين . واستعراض قصيدة المعري يوضح ذلك ، إذ بدأ قصـيدته بوصف المرثي بالكرم ، فهو مالُ الذي ذهـب مالُـه وعنبـرُ الـذي يستاف العطر :[١٨]

أُوْدَى ــ فليت الحادثات ــ كفافِ مالُ المسيف وعَنْبرُالمُسْتَـافِ

وهو الطاهر نسبا وفي كل شيء ، وقد توفي في ليلة رعـد ، وبكى عليه الضمام ، وغاض البحر ، وتغير الليل والنهار ، والدر فـي الأصداف ، ورعشت الرماح ، وتعطفت من فرط الوجد حتى اجتمـع سنانُه وزجُّه كما تتعطف الحية حين تجعل رأسها عند ذنبها ، وذنبهـا عند رأسها ، وتعطل تقويم الرماح .

ومضى المعري في ذكر مثل هذه الأوصاف ، حتـى قـال إنَّ الأغربة نعته للأصدقاء والأعداء ، وإنَّ أَسَفَ الغربان أَسفٌ بهـا ؛ لأن الكمد أضعفها من الطيران ، فهي تهفو فوق التراب كما تهفو الـريح . وشبّه ،نعيبها بنحيب النوادب ، وشبه سواد أجنحتها بالحداد الذي تلبسه الثواكل . وخاطب الغراب بقوله :

لاخابَ سعيك من خُفافِ أَسْحمٍ كسُحيم الأَسدي أوكخُفـاف

أي كالشاعرين سُحيم وخُفاف بن ندبة ، ودعا له أنْ لا يخيـب سعيه لما فعله من الحزن على الميت ، ثم قال له : لا خاب سعيك مـن شاعر للبين قال مرثية في الميت على روي القاف ، يعني حكاية صوت

---

[١٨] تنظر القصيدة في شروح سـقط الزنـد ــ السـفر الثـاني ــ القسـم الثالـث ص١٢٦٤ .

الغراب : (غاق غاق) وهو يكرر الأصوات ، فكأنها قصيدة قافيّة الروي ، وقد بُنيت على الإيطاء ، وكانت سالمة من الإقواء والإكفاء والإصراف : [19]

بُنيتْ على الإيطاء سالمةً من الـ إقواء والإكفاء والإصرافِ

وحسدت البزاةُ الغرابَ لسواد ريشه وتمنت أن تكون سوادا مثله لتحزن على الميت كما حزنت عليه الطيور وإن لم تلبس حدادا ، ولم تقل شعرا . وتمنى المعري أنْ يسلم المرثي من الموت وأن يموت غيره ، وأشار الى فروسيته وتمنى لو دفن سيفه معه :

هلاّ دفنتم سيفَه في قبره معه فذاك له خليلٌ وافِ

وكان المرثي كريما حتى أن الموتى إذا زاروه في قبره كساهم أكفانا جُدُدا عوضا عن الأكفان البالية التي عليهم ، فإنْ لم يكن ذلك جاز أن يخلع عليهم كفنه ، وقال إن رضوان خازن الجنة طوع يديه يتحفه من طرائف الجنة بما يريد .

إنَّ المرثي بحر من العطاء والكرم ، وتضمه درع كأنها غدير وإن كان في العظم كالبحر ، وهذه الدرع بيضاء تردها أسنة الرماح كما ترد الحمامُ الوُرْقُ المياة الصافية . ولما شَبَّهَ الدرع بالماء شَبَّهَ نِصال النبل من حيث أنها لا تعمل في الدرع ، ولا تؤثر فيه بالريش الساقط على الماء ، يطفو عليه ولا يرسب فيه .

---

[19] الايطاء : إعادة الكلمة بلفظها ومعناها . الاقواء : تحريك المجرى بحركتين مختلفتين غير متباعدتين ، والمجرى هو حركة الروي المطلق أي المتحرك الذي يعقبه ألف او واو أو ياء . الاكفاء : أن يؤتى في البيتين من القصيدة بروي متجانس في المخرج لا في اللفظ . الاصراف : هو الجمع بين حركتين مختلفتين متباعدتَين .

وبعد أن انتهى من وصف الدرع عادا الى الرثـــي وقـــال : إنَّ الركْبَ بعده كرهوا أكل الزاد لما هم عليه من الكمد ، وإن الخيل التـــي زايلها لو تمكنت من أعرافها لأَنْحَتْ بأيديها عليها الى أن تزيلهـــا مـــن الأسف والحزن عليه .

وَعَرَّجَ على ولديه الرضي والمرتضى ، وقال : إنهما أعظم مـــن نور الكواكب ؛ لأن نورها يغلب عليه ضياءُ النهار ، ونورهما لا يغلب عليه شيء ، وقد ارتفعا في المكارم ، وهما في العطاء كالمطر الـــذي يُحيي الأرض بما يصوب منه ، وهما في الظلمات كالقمرين المشرقين والنيرين المضيئين ، وقد رُزقا البيان ، وســـاوى أحـــدهما الآخـــر ، وتقاسما خطط العلا بتناصف وتصافي . وقال إن بيت الموسوي وبنيه). ما مال بموت الأب ، فهو كمثل بيت الشعر لا ينتقص إن ذهـــب منـــه ساكن أو حركة ، .

وذكر جدهم موسى الكاضم ــ رضي الله عنه ــ ووصفهم بالكرم حيث يُوقدون النار ببطون الأودية لأنها ممر الناس ، وهذه النار لها في الصيف ظل وفي الشتاء حرور ، وجمرها عظيم لا تستطيع الـــريح إذا عصفت أن تحمله لثقله ، ولن يقدر على إطفائها زحل إذا جاء بـــالبرد والقمر ، وهي توقد في العراق وعلى عِراص ذيول مكة تنســـحب أي تُرى لعظمها ، ويصل نورها الى منازل نائل وإساف .

وعلى هذه النار العظيمة قدور وجفاف عظام ، ركبت على أثاف عظيمة كأنها الجبال لعظمها وكبر حجمها .

وختم المعري مرثيته للموسوي بالاعتذار من تقصيره ، وقـــال : إنَّ قصيدته حمولة قوم مُجْدِبين :

يا مالكي سَرْحَ القريض أتتكما مني حمولةُ مُسْنِتينَ عجـــافِ

لا تعرف الورَقَ اللَّجينَ وإنْ تَسَلْ تُخبرْ عن انقلاَّم والخِـذْراف

أي : أنها عربية ، وهي من البادية تعرف الحمض والقلام والخذراف من الحمض ، ولا تعرف الوَرَق الَّجين لأنَه من علف أهل الأمصار :

وأنا الذي أَهْدي أقلَّ بهارةٍ حُسْنا لأَحْسَنِ روضةٍ مِئْناف

وقال : إنَّ مدحه الذي هداه الى الشريفين : الرضي والمرتضى ليس تعرضا لعطائهما وفضلهما وإنما غرضه قضاء حقهما والتشرف بهما :

أَوضعتُ في طرق التشرف ساميا بكما ولم أَسلُكْ طريقَ العافي

أي طريق السائل المحتاج .

هذه خلاصة قصيدة المعري ، وهي بعيدة عن قصيدة شوقي في المعاني والتصوير لاختلاف أحوال المرثيين منزلةً وسلوكا وعصرا ، وإن كانت هناك ملامح لا تتضح بين القصيدتين كثيرا ، من ذلك قول شوقي :

ذهَبَ الذبيحُ السَّمْحث مثل سَميّه طهر المكفن طيبَ الأَلفافِ

حيث جنس تجنيس إشارة بين اسماعيل النبي واسماعيل الشاعر ، وكلاهما ذبيح ، وجنس المعري مثل هذا التجنيس في قوله :

ويخال موسى جدكم لجلاله في النفس صاحب سورة الأَعراف

وموسى هو موسى الكاظم ــ رضي الله عنه ــ والمذكور في سورة الأعراف هو النبي موسى ــ عليه السلام ــ .

قال المعري :

فارقت دهرك ساخطا أفعاله وهو الجديرُ بقلة الإنصافِ

وقال شوقي:

نَمْ مِلءَ جفنك فالغدوُّ غوافـــلٌ ... عما يروعك والعشيُّ غوافـــي

في مضجع يكفيك من حسناتـــه ... أنْ ليس جنبك عنه بالمتجافي

واضحك مع الأقدار غير معجَّز ... فاليوم لستَ لها من الأهـــدافِ

فالموت يخلص الانسان من الحساد والكائدين فينام مرتاحا فـــي قبره ، والشاعران يشيران الى ما كان المرثيان يتعرضـــان لـــه فـــي حياتهما من كيد وجحود ، ولا سيما صبري الذي أحبل على المعـــاش ليكافئ الانكليز احمد فتحي ويعينوه وكيلا لوزارة العدل مكانه .

وهذه الايماءات لا تقضي بمعارضة شوقي للمعري معارضـــة بمعناها الدقيق ، وإن كام يجيل في نفسه بعض القصائد القديمة ، فتنبثق من صدره قصيدة جديدة ، وقد أشار هو الى هذا حين تحدث عن نظـــم السينية وهو يتجول في الأندلس ويتملّى الآثار كما تملّى البحتري آثـــار الايوان .[٢٠]

وذكر محمد الهـــادي الطرابلســـي الموافقـــات بـــين مقـــاطع القصيدتين[٢١] وهـــي : الـــوافي ـ عفـــاف ـ الألاف ـ ســـلاف ـ الأضياف ـ الرجاف ـ أشافي ـ أعطـــاف ـ منـــافي ـ طـــواف ـ خوافي ـ الصافي ـ الأقواف ـ عبد مناف ـ سلاف ـ الأشراف ـ أسلاف ـ الأعراف ـ الأصداف ـ الأسياف ـ أحلـــف ـ نطـــاف ـ الاتحاف ـ الألطاف ـ قوافي ـ خـــافي ـ الإنصـــاف ـ كفـــاف ـ الذراف ـ طاف ـ الأوصاف ـ المئناف .

---

[٢٠] ينظر الشوقيات ج٢ ص٥٢ وما بعدها .

[٢١] ينظر خصائص الأسلوب في الشوقيات ص٥٤٣ .

وهي الفاظ لابدّ أنْ تخطر في مخيلة الشاعر وهو ينظّم قافية ، ولا يبعد أنْ يستعمل كثيرا منها إن لم يجد مندوحة عنها . ولكن ــ على الرغم من هذا ــ فان بعض الألفاظ التي ذكرها المعري قد جاء بها شوقي متصلة بغيرها كما ذكرها الأول ومن ذلك : كلمة (الوافي) : قال المعري : ((خليل واف)) ، وقال شوقي : (الخليل الوافي)) .

و (عفاف) : قال المعري : ((بسؤدد وعفاف)) ، وقال شوقي : ((هدى وعفاف)) و (الرجاف) : قال المعري :

ويقال إن البحر غاض وإنها ستعود سيفا لحبةُ الرجّافِ

وقال شوقي :

أَحْنَتْ على الفلك المُدار فلم يَدُرْ وعلى العباب فقَرَّ في الرَّجافِ

و (طواف) : قال المعري : ((محسوبتان بعمرة وطواف)) وقال شوقي : ((بتمسح وطواف)) .

و (خوافي) : قال المعري : ((سواد قوادم وخوافي)) وقال شوقي : ((بقوادم من أمسهم وخوافي)) .

و (الصافي) : قال المعري : ((في غدير صاف)) ، وقال شوقي : ((الغدير الصافي)) .

و (عبد مناف) : قال المعري : ((جبل هوى من آل عبد مناف)) وقال شوقي : ((فلقد أعاد بيان عبد مناف)) .

والصلة بينهما أن المعري كان يرثي الموسوي الذي يرجع نسبه الى عبد مناف ، وكان شوقي يتحدث عن صبري الذي إنْ فاته نسب عبد مناف ، فانه لم يفته بيانه .

و (الأعراف) : قال المعري : ((صاحب سورة الأعراف)) وفيه جناس إشارة والمراد به النبي موسى ــ عليه السلام ــ وقال

شوقي : ((حتى يشار اليك في الأعراف)) ، فعمران أبو موسى ــ عليه السلام ، وفي القرآن سورة آل عمران وسورة الأعراف ، وفيهما ورد اسم موسى .

و (أحلاف) : قال المعري : ((فيا لثلاثة أحلاف)) والثلاثة هم الرضي والمرتضى والمرضي ، وقال شوقي : ((فيا لثلاثة أحلاف)) يريد الشعر الاسود ، والشعر الأبيض الذي يخالطه السواد ، والشعر الأبيض ، وهي أدوار الحياة الثلاثة .

و(نطاف) : قال المعري : ((زُرْق نِطاف)) أي مياه صافية ، وقال شوقي : (وعذب نطاف)) .

و (الاتحاف) : قال المعري : ((رضوان بين يديه للاتحاف)) وقال شوقي : ((أزجيه بين يديك للاتحاف)) .

و(خافي) : قال المعري : ((أودى فليت الحادثات كفافِ)) ، وقال شوقي ((حتى ظفرت به فَدَعْه كفافِ)) .

و (الذراف) : قال المعري : بدمعه الذَّرَّاف)) ، وقال شوقي : ((بالمدمع الذَّرَّاف))

و (طاف) : قال المعري :

سطعت فما يسطيع إطفاءً لها زُحَلٌ ونورُ الحقِ ليس بطافِ

وقال شوقي :

فاذهب كمصباح السماء كلاكما مالَ النهارُ به وليس بطافي

ولا يعني هذا أنَّ قصيدة شوقي نقل لقصيدة المعري ، وإن اتفقت هذه الألفاظ في ائتلافها ؛ لأن شوقي عَبَّرَ بها عن غير ما عبر بها المعري ، فضلا عن أن حرف الفاء من الحروف المتوسطة الشيوع في

الروي[٢٢] ، مما يجعل الألفاظ المنتهية بالفاء تتردد نفسها في القصائد الفائية الطويلة كقصيدتي المعري وشوقي .

(٦)

كانت منزلة شوقي الفنية والاجتماعية سببا في نقده نقدا غير موضوعي ، وكان عباس محمود العقاد من أقسى الذين نقدوا شعره ، وعدّ قصيدة رثاء مصطفى كامل كومة رمل[٢٣] ، وسُرَّ جميل صدقي الزهاوي وأثارته مبايعة شوقي بامارة الشعر إذ كان لا يعترف بشاعرية أحد غيره . وحانت الفرصة له حين نُشرت قصيدة شوقي في رثاء الشاعر اسماعيل صبري فنشر نقدا لاذعا ساخرا في جريدة (العراق) سنة ١٩٢٣م[٢٤] ، وردّ انتقاداته محمد بهجة الأثري في جريدة (العاصمة) بخمس عشرة حلقة[٢٥]، ورد مقالاته محمد الهاشمي بتسع حلقات نشرها في جريدة (العراق)[٢٦] .

---

[٢٢] ينظر موسيقى الشعر ص٢٤٦ .

[٢٣] ينظر الديوان ص١٣٢ .

[٢٤] ينظر نقده في النقد الأدبي الحديث في العراق ص٤١٤ ، والزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ص٣٥٨ ، والزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية ص٢٢٠ .

[٢٥] ينظر نقده في النقد الأدبي الحديث في العراق ص٤٢٦ ، وكان الزهاوي قد نشر نقده بتوقيع (شاعر عراقي كبير) وأخبرني المرحوم الأثري أن النقد للزهاوي (ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق) ص٤١٤ (الحاشية) وكان ذلك عام ١٩٦٨م .

[٢٦] ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق ص٧٨ ، والزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية من ٢١٨ .

ولم يكن نقد الزهاوي نقدا موضوعيا بلْه أن يدل على فهم قصيدة شوقي ، وكان الهدف من هذا النقد هدم شاعرية شوقي ، ولكنه لم يستطع أن يهدم هو وغيره من الحاسدين والحاقدين صَرْحَ الشاعر الكبير.

ومن أمثلة ذلك النقد قول الزهاوي في مطلع القصيدة :

أجلّ ــ وإنْ طال الزمانُ ــ مُوافي أخلى يديك من الخليل الوافي

((أجد المعنى مضطربا لا يتماسك وإن ربطه بسلسلة الوزن وأحكم وثاقه ، وكنت ظننت أول وهلة أنه جعل (أجل) مبتدأ و (موافي) خبرا له ، فاصلا بينهما بـ (إنْ) الوصلية مع جملتها ، ولكن عدم جواز الابتداء بالنكرة أرجعني الى الهدى ، وترجح لديّ أن المبتدأ محذوف ، فكأنه يقول : (هو أجل) وحينئذ يكون (موافي) صفة للخبر وهو (أجل) . هذا جيد ، ولكن في الفصل بين الموصوف والصفة بـ (إنْ) والجملة تشويشا للمعنى . كان على الشاعر الكبير أن يتجنب دواعيه ، فكما لا يجوز أن يقال : (الرجل وإن كان ذا مال ،الظالم ممقوت) كذلك القول : (رجل وإن كان ذا مال ظالم ممقوت) ولا شك أن شاعر مصر العصري في مطلعه هذا قد جَرَّدَ من نفسه شخصا ، وجعل يخاطبه كما كان يفعل الأقدمون ، وقد أسف لاخلاء الأجل يديه من خليله الفقيد كأنه عصفورة أفلتت من يديه فرآهما خاليتين فجعل يصرخ أسفا وقال :

ذهبَ الشبابُ فلم يكن رُزئي به دُونَ المصاب بصفوة الأُلاف

وكان يعلق على بعض القضايا العلمية والفلكية ، ويبدو أنه لم يدرك كثيرا مما جاء في القصيدة ، ومن ذلك قوله في البيت :

فلكم سقاه الودَّ حين ودادُه حَرْبٌ لأهل الحكم والأشراف

((برئت من الأدب إن كنت أعرف معنى البيت ، ومراد الشاعر الكبير ، وعسى أن يكون قد أراد أنه سقى اللواء وده يوم كان وداده حربا لأهل الحكم والأشراف ، أو أراد أنَّ حرب أهل الحكم والأشراف قد سقته الوداد ، ومن العجيب أن يسقي الود (حين ودادُه) وما أقصر اللفظ عما أراد)) .

وهذا كلام ما كان ينبغي أن يصدر عن الزهاوي الشاعر والمفكر والفيلسوف[٢٧] ولو رجع الى البيتين :

ويحَ الشباب وقد تخطَّر بينهم ... هل مُتعوا بتمسُّحٍ وطَوافِ

لو عاش قُدوتُهم وربُّ لوائِهم ... نكَسَ اللواءَ لعابت وقافِ

لا تضح معنى البيت الذي علق عليه هذا التعليق ، لقد قال شوقي : هل متع الشباب أنفسهم بعظمة الميت وقد تخطر بينهم ، وهل تمسحوا به وطافوا حوله تكريما له ، ثم قال : لو أن زعيم الشباب مصطفى كامل صاحب جريدة (اللواء) كان حيا لنكس لواءه تعظيما وتكريما لاسماعيل صبري الذي كان يسقيه الوداد ، وهو حرب على الحكام وعملاء الانكليز ، وقد مات سنة ١٩٠٨م ، أي بعد سنة من إخراج صبري من وكالة وزارة الحقانية (العدل) ، ولعل الود بينهما كان من أسباب إحالة صبري على التقاعد .

ولم يقف الزهاوي عند هذا الحد ، إذ حين صدرت طبعة للشوقيات سنة ١٩٢٨م نقد ثلاث قصائد منه ، ونشر نقده بدون توقيع

---

[٢٧] دفع هذا محمد بهجة الأثري الى أن يقول في أول رده نقد الزهاوي :

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأفهام منه ... على قدر القرائح والفهوم

(ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق ص ٤٢٦) .

في مجلة (لغة العرب) للأب أنستاس ماري الكرملي ، وظل الاعتقاد سائدا على أن ((الناقد هو صاحب المجلة)) الى أن كشف عبدالرزاق الهلالي عن مُسَوَّدات ذلك النقد ، فاذا هي بخط الزهاوي المعروف .[٢٨]

والقصائد الثلاث[٢٩] هي (كبار الحوادث) :

هَمَّتِ الفُلْكُ واحتواها الماءُ وحداها بمن تُقِـلُّ الرجـاءُ

و (وداع اللورد كرومر) :

أيامُكم أم عَهْدُ إسماعيـلا أم أَنْتَ فِرعون يسوسُ النيلا

و (الصليب والهلال الأحمران) :

جبرياً أنت هدى السمـا ءِ وأَنْتَ برهـانُ العنايـه

ولا يبعد نقد هذه القصائد عن نقده مرثية اسماعيل صبري ، وازداد فيه سخرية من شوقي ، وقال : ((لا يخرج شعر شوقي ـ بك ـ في الاكثر عن أفكار متناقضة لاصلة لها بالطبيعة والحقيقة التي تستند اليها ، وتفاهة وتقليد للقدماء)) .

أَلقى المنهجُ الذي ارتضيناه الضوء على قصيدة شوقي ، واتضح :

١ـ أنَّ معرفة سيرة اسماعيل صبري أَدّت الى فهم القصيدة ، وبينت العلاقة بينه وبين شوقي .

٢ـ أنَّ القصيدة لم تكن معارضة لقصيدة المعري ، وإن اتفقت في الغرض والوزن والقافية ، ولم تكن فيها مبالغات كقصيدة أبي العلاء .

---

[٢٨] ينظر الزهاوي في معارك الأدبية والفكرية ص٢١٨ ، والزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ص٣٦٥ .

[٢٩] تنظر القصائد في الشوقيات ج١ ص١ ، ٢٠٩ ، ٣٦٣ .

٣ــ أنَّ ورود موافقات بين مقاطع القصيدتين لا يدل على المعارضة بمعناها الدقيق ؛ لأن شوقي وظفها لغير ما وظفها المعري في أكثر الأبيات .

٤ــ أنَّ القصيدة احتفظت بروحها ، ولم تتبعثر كامات داخل المربعات والدوائر والمثلثات ، والمعادلات الجبرية ، والخطوط البيانية والرسوم الهندسية .

إنَّ النقد عملية تفسير وتقريب ، لاعمل زخرف من القول ، وإلقاء بعض الضوء على الإبداع الفني خير من المتاهات التي يضيع فيها المتلقون .

المصـــــادر

١ــ الأشباه والنظائر في النحو ــ جلال الـدين السـيوطي ــ تحقيـق الدكتور عبد العال سالم مكرم ــ ج٤ ــ بيـروت ١٤٠٦هـــ ــ ١٩٨٥م .

٢ــ تأريخ الأدب العربي ــ احمد حسن الزيات ــ الطبعة الرابعة عشرة ــ القاهرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٥م .

٣ ــ خصائص الأُسلوب في الشوقيات ــ محمد الهادي الطرابلسـي ــ تونس ١٩٨١م .

٤ــ دراسات في الشعر العربي المعاصر ــ الدكتور شوقي ضـيف ــ ط٢ ــ القاهرة ١٩٥٩م .

٥ــ الديوان ــ عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني ــ ط٣ ــ القاهرة ١٩٧٢م .

٦ــ الزهاوي الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر ــ عبد الرزاق الهلالي ــ القاهرة ١٩٧٦م .

٧ــ الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية ــ عبد الرزاق الهلالـي ــ بغداد ١٩٨٢م .

٨ــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ــ تحقيق محمد محيي الـدين عبد الحميد ــ ط٦ ــ القاهرة ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١م .

٩ــ شروح سقط الزند ــ القاهرة ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٤م .

١٠ــ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (مجموعة أعلام الشعر) عباس محمود العقاد ــ بيروت ١٩٧٠م .

١١ــ الشوقيات ــ احمد شوقي (ج١ طبعة مطبعة مصـــر) و (ج٣) القاهرة ١٣٥٤هـــ ــ ١٩٣٦م .
١٢ــ الشوقيات المجهولة ــ احمد شوقي ــ الدكتور محمد صـــبري ــ القاهرة ١٣٨١هـــ ــ ١٩٦١م .
١٣ــــ الموازنـــة بـــين الشـــعراء ــ الـــدكتور زكـــي مبـــارك ــ القاهرة ١٩٦٨م.
١٤ــــ موســـيقى الشـــعر ــ الـــدكتور ابـــراهيم أنـــيس ــ ط٢ ــ القاهرة ١٩٥٢م .
١٥ــــ مـــي زيـــادة فـــي حياتهـــا وآثارهـــا ــ وداد ســـكاكيني ــ القاهرة ١٩٦٩م.
١٦ــ النقد الأدبي الحديث في العراق ــ الـــدكتور احمـــد مطلـــوب ــ القاهرة ١٩٦٨م .